



الطقس البحري والمصنع البشري
 قصيدة الزميل الحبيب بالمغرب
 من عبد الله الفواز
 الحبيب والمصنع

مجتمع مدني فعال في المغرب

• عبد الكريم غلاب

اصطلاح ربما كان جديدا بين المصطلحات التي تستعمل في العربية لتحديد مجتمع عربي أو مجتمع من العالم الثالث. ومثل هذه المصطلحات تأخذ أبعادها من وضعية مجتمع متحرك تحرك تطوّر نحو المجتمعات الجديدة في العالم الأول. ولذلك فالمجتمع المدني قد يأخذ مفهومه لمجتمع مغاير للمجتمع الحالي مما يراد له من تغيير وتطور.

مجتمعات العالم الثالث كان بعضها يقوم على أساس الدين، بعضها يقوم على أساس القبلية والعرقية، بعضها يقوم على أساس الخرافة والأسطورة، بعضها يقوم على أساس نظام حكم تقليدي، يلعب فيه شيوخ القبيلة مثلاً دوراً أساسياً أو يلعب فيه الكليروس أو "المفتون" من رجال الدين دوراً جوهرياً، وبعضها تلعب فيه الطائفية دوراً خطيراً حتى أنك لتجد القرار يصنع من بضعة رجال على عدد الطوائف الدينية أو المذهبية (لبنان)، بعضها تجمع بين كل هذه "الفضائل": الدين والقبيلة والعرق والخرافة والأسطورة والنظم التقليدية ورجال الدين وعمداء المذهب.

وجاء العصر الحديث بعقلية أو بدعة جديدة انتشرت بعد الحرب العالمية الثانية انتشار النار في الهشيم. بدأها ضباط أو جنود أسهموا في الحرب العالمية مع هذه القوة أو تلك من القوات الكبرى التي تحاربت، أو أسهموا في حرب من الحروب الثانية التي جاءت بعد الحرب العظمى الثانية، والتي كان العالم الثالث مسرحاً لها في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. وأنتجت هذه البدعة مجتمعا من نوع آخر، لا أقول مجتمعا عسكريا، ولكنه مجتمع يخضع لحكم عسكري. هذا الحكم - بعقليته المتميزة بخصوصيتها - أوجد مجتمعات ليست من نوع المجتمع الفرنسي - مثلاً - الذي كان يحكمه دوكول وهو عسكري محارب من نوع العسكريين الكبار المقاومين الذين أنتجتهم الحرب العظمى

الثانية، وليس من نوع المجتمع الأمريكي الذي حكمه جنرال آخر أنتجته الحرب الثانية كذلك وهو إيزنهاور، ولكن من نوع المجتمعات التي حكمها جنرالات أو مرشالات في فيتنام وبنغلاديش وباكستان ومعظم البلاد العربية ومعظم دول إفريقيا.

هذا الحكم العسكري يمكن أن يكون مجتمعا يجمع بين المجتمعات التي المعنا إليها، والتي كان بعضها كمرقعة الدراويش، ويمكن أن يكون مجتمعا تنتصر فيه كلمة العسكر وسلطة الحكم العسكري. وعند ذلك تغيب كل مميزات الحكم المدني الحديث، ليس في مقابل المجتمع العسكري، فليس هناك مجتمع يمكن أن يكون مجتمعا عسكريا، ولكن في مقابل المجتمع المتحضر الذي يخضع في تكوينه وفي ممارساته السياسية والاجتماعية والاقتصادية لطبيعة مجتمع القانون، ويخضع في حكمه لسلطة المؤسسات.

لعلني اهتديت إلى أن المجتمع المدني يخضع في تكوينه وممارساته إلى نظام ديمقراطي يضبطه القانون وتعود فيه السلطة لمجموع الشعب، ويتصرف في حياته على أساس ما تواضعت عليه المجتمعات المتقدمة. على نحو ما كانت كلمة "المدنية" تستعمل مرادفة للحضرية. والكلمة في رأي لها دلالتها لأنها مشتقة من المدنية بالتعريف الأفلاطوني، لا بتعريف القواميس الجديدة التي تعني ما يقابل "البادية" أو "الريف".

المجتمع المدني بهذا المفهوم يختلف عن المجتمع الذي تتحكم فيه قيم غير قيم القانون، أو يتحكم فيه مفهوم قبلي أو عرقي أو طائفي أو عسكري، أو تختفي فيه القيم الانسانية-وبعضها مما تضمنته مواثيق حقوق الانسان. أو يخضع لميز بين البيض والملونين، بين السادة والعبيد، بين الأغنياء والفقراء، بين الذين يملكون والذي لا يملكون، بين المعلمين والأمين، بين العمال وأرباب العمل، بين مالكي الأرض وعبيد الأرض... مظاهر الميز هذه هي التي أخرجت كثيرا من المجتمعات من دائرة المجتمع المدني، لاختفاء القانون كمنظم للعلاقات بين أطراف المجتمع: السلطة والشعب، والشرائع التي يتكون منها الشعب وتتحرك فكريا واقتصاديا واجتماعيا في دائرته.

ومظاهر الميز هذه هي التي سلكت بكثير من المجتمعات سبيل الحرب الاهلية المدمرة: لا نذهب في التاريخ بعيدا لنؤكد الفكرة بأمثلة من حروب بعض الشعوب القديمة المتخلفة، بل بعض الشعوب القديمة المتحضرة: اليونان والرومان، ولكننا نشير الى الحروب والمذابح التي شهدتها أوروبا، وكل دولة منها تصارع لتتوحد داخل المجتمع المدني: العبيد ضد السادة، الشعب ضد الحاكمين، عموم المواطنين ضد سيطرة الكنيسة، القانونيون والدستوريون والديمقراطيون والثوريون ضد المتسلطين على الحكم... ونشير الى الحروب الاهلية التي شهدتها أمريكا الشمالية بين الشمال والجنوب بين البيض والسود، بين العناصر المنتمية الى هذه الدولة الاروبية أو تلك، بين المهاجرين ومن سموهم "الهنود الحمر" من سكان أمريكا الأصليين الذين خضعوا الى عملية ابادة خطيرة لم يعرف تاريخ الانسانية لها مثيلا.

لم تتكون المجتمعات المدنية في أوروبا وأمريكا إلا بعد صراع دام، ليس بين الكتل البشرية فحسب، ولكن بين الأفكار والقيم التي تطبع المجتمع المدني، والرواسب التي تطبع المجتمعات المتخلفة (إذا صح أنها مجتمعات لأنها مجموعات أشبه ما تكون بالمجموعات الجهوية أو القبلية أو الطائفية . . .)

لا نذهب بعيدا، وأمام أعيننا مجتمعات لم يستقر فيها بعد نظام المجتمع المدني فخضعت لحروب داخلية مدمرة أو لحكم عسكري أو تسلطي (تحت أي اسم كان هذا الحكم) فاخترق القانون ليحل محله نظام الغاب. حروب لبنان أو السودان وغيرهما من البلاد العربية والافريقية مثال على ذلك. الانقلابات التي عرفها دول في أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا مثال آخر. اعتقد أن كثيرا من الأخطار تهدد المجتمع المدني حتى بعد أن يستقر في مجتمعيته ومدنيته. خطر أن أشير اليهما كمثل:

أولهما: فساد نظام الحكم. مهما يكن الاسم الذي يعطي لنظام حكم في مجتمع مدني فشرطه الأساس هو الاستقامة. ونظم الحكم التي تخربها الفوضى أو الرشوة والفساد والمحسوبية وتزييف القيم والنظم والمؤسسات كل ذلك وبعضه يهدم أسس المجتمع المدني، إذا لم يمهّد الطريق لمجتمع الفوضى والصراع بين الشرائع الاجتماعية. وأخطر من ذلك الصراع بين مكونات المجتمع "العرقية" واللغوية والجهوية والإقليمية والطائفية، والأصول البشرية التي يتكون منها.

ثانيهما: الصراع الأيديولوجي أو المذهبي، وأؤكد على كلمة "الصراع"، الأفكار والآراء وإن اختلفت أو تباعدت يمكن أن تعايش في مجتمع مدني قائم على سعة الأفق الفكري والعقدي والسياسي. والفلسفات والنظريات خرجت دائما من معطف الفكر المتفتح الذي لا يضيق عطفه بالاختلاف. بل خرجت من معطف الاختلاف والتباين في الرأي. ولكن حينما يتحول الاختلاف إلى صراع يختفي الرأي والفكر والمنطق والهدف لتقوم مكانه النزعات الطائفية والقبلية والجهوية متسرلة بالمذهبية والأيديولوجية. وتلك إحدى مقاتل المجتمع المدني.

وأحب أن أشير إلى الدين الذي يطبعه التسامح وبالأفق الواسع في العقيدة والفكر والممارسة، والذي يضع الإنسان المتدين أمام ربه، لا أمام إنسان آخر يمكن أن يستعبده باسم الدين، ولا أمام سلطة تتلفع بالدين أو تتسلط باسمه، دين كهذا -والإسلام مثال واضح له- لا يمكن أن يقف في وجه تكوين مجتمع مدني تسوده كل القيم التي تكون المجتمع المدني.

ولذلك فالذين يشككون في تأسيس مجتمع مدني في شعب يدين بدين متفتح كالإسلام إنما يأخذون المثل من ديانات أخرى حاربت المجتمع المدني، أو من أيديولوجيات منغلقة كانت أقسى على المجتمعات من كل الديانات المنغلقة التي عرفتها الإنسانية، فقامت على مصادرة الرأي وحرية الإرادة وكل القيم التي كافح الإنسان المتمدن في سبيل تكريسها.

من هذه المنطلقات يمكن أن أقول: إن المغرب من بين البلاد التي يمكن أن ينجح فيها تكوين

مجتمع مدني، ليس فقط لأن شعبه متفتح وقريب- جغرافيا وفكريا- من شعوب متفتحة، ولكن أيضا لأنه شديد الادراك لمسؤولياته المستقبلية في عالم الغد.

قبل ثلث قرن كانت العوائق تقف في وجه تفتح شعب المغرب على العصر الحديث، ولكنه في العقود الثلاثة ونيف، والتي تفصله عن عهد الحماية، تخطى كل هذه العراقيل ليقف على قدميه كمجتمع قابل لأن يكون مجتمعا مدنيا فعالا.

في مقدمة العراقيل التي انتصر عليها الامة الفكرية (الامة الالف بائية ما تزال متمكنة) والنصرة القبلية والعرقية والجهوية والمدينية. وفي مقدمة ما انتصر عليه الخرافة والاسطورة التي كانت تتحكم في العقلية المهيمنة على كثير من الشرائح المجتمعية، ثم العجز الفكري، الذي لم تكن الادارة وحدها تفرضه بمقدار ما كان التخلف يكرسه، ويمكن أن نشير في هذا المجال الى المجتمع المغربي (الشباب في مقدمته) من بين المجتمعات القليلة في العالم الثالث التي لم تستبدل بتخلفه الفكري استلابا فكريا آخر لهذه الايديولوجية أو تلك، ولم تنجح فيه الصراعات المتطرفة في الاستلاب الفكري والعقدي كما نجحت في كثير من البلاد العربية والافريقية.

تفتح المجتمع على كل الآراء والنظريات والاتجاهات الفكرية، ولكن أيا منها لم تستعبده فساد في اثرها مغمض العينين مستلب الفكر.

ولذلك فقد عرف المجتمع الشاب في المغرب في فترة الاستقلال تفتحاً يؤكد قابليته ليكون مجتمعا مدنيا ناجحا. تعايش فيه كل الآراء والنظريات المعتدلة والمتطرفة يمينا ويسارا ولكنها جميعها كانت تعترض بحرية الفكر، ولا عبرة بالشاذ عن هذه القاعدة.

ثم إن المجتمع تفتح على نظام حكم ديمقراطي يسوده القانون. وأعتقد أن الشرائح الاجتماعية الواعية كلها ناضلت للوصول الى نظام يستهدف دولة القانون وسلطة المؤسسات. حقق الكثير من المكاسب، إذا صح لنا أن نلقى نظرة الى الوراء لتتحسس المسافة التي قطعناها -ان لم تكن عملية كلها فهي مسافة وعي ونضال- فسندرك أن شعبنا حقق الكثير في طريق تكوين مجتمع مدني مظهره الأساس الحرية والنضال في سبيلها.

أعرف، معرفة تأكيد، السلبيات التي ما يزال يتخبط فيها المجتمع المغربي، مبادئها البؤس ومتهاها الماضي الذي ما يزال يرفع إصبعه متحديا المستقبل. ولكننا نسير في الطريق ونبتز الممكّنات من المستحيلات، ونعرف أهدافنا معرفة أكيدة، ويتكون شابنا بوعي رغم كل ظروف الاحباط التي تواجههم وفي مقدمتها بطالة المتعلمين.

وبعد، فالمجتمع المدني في العالم الثالث ليس بضاعة جاهزة معروضة لكل مشتر ولكنه بناء مستقبلي لا يقام هيكله بغير نضال أجيال. والمهم أن أجيال الاستقلال تناضل.